من تراب الطريق (٢٩٦) اللى عاوزه البيت يحرم على الجامع ! (*)

تذكرت هذا المثل وأنا أتابع أقلام كبار كتابنا الذين وإن نأوا بأنفسهم عن الدخول فى طوابير الطبل والزمر والبخور التى صار لها متخصصون ، إلاّ أنهم وظفوا كل معارفهم وهمهم وخبراتهم لنقد النظام الإيرانى . وقد يكون فى النظام الإيرانى ما يغرى بالنقد والهجوم ، ولكن ما بالنا نترك أحوالنا فى بيتنا ونيمم إلى أرض بعيدة لأمة أخرى ، تاركين أحوال بيتنا ومتاعب ومواجع شعبنا لا نلقى لها بالاً ولا نتعطف عليها بكلمة !

ما تحتاج مصر إلى نقده وبيان مثالبه ومحاذيره ومخاطره ، كثير كثير يملأ عين الشمس وكل عين تبصر وترى .. والقضايا المتفجرة هنا عديدة متنوعة تقض المضاجع وتحمل نذراً مخيفة تحتاج معها إلى فكر وبصيرة وحكمة كل صاحب رأى أو ممسك بقلم .. تصورت من كثرة الكتابة عن إيران وعن نظام حكمها الذى لا يطاق ، أنه نوع من الإسقاط ما دام أصحاب هذه الأقلام لا يريدون الإفصاح عن رأيهم فيما يجرى فى بر مصر !! ولكن ما رأيناه من ذلك كان فى أعمال فنية استخدمت الإيحاء

(*) المال ١٦/ ٧/ ٢٠٠٩

أو الرمز أو الإسقاط ، كما فعل توفيق الحكيم مثلا فى بنك القلق ، أو نجيب محفوظ فى الكرنك أو ثرثرة فوق النيل ، أو يوسف إدريس فى قصته المخفية المحاصرة : «أبو الرجال» .. ولكن لا عهد لنا بأقلام قادرة ومنها من لم يعد أسير موقع أو وظيفة تكبله ، ومع ذلك يترك أوجاع وشجون بلده ، وتجاوزات حكمه ، ومتاعب شعبه ليشن قلمه وهجومه على إيران ونظام إيران !

لقد مل المصريون من كثرة الحديث عن إيران ، وتعجبوا ولا يزالون من امتناع الحديث عن مصر وأحوال مصر والمصريين .. كون نظام الحكم الإيرانى لا يطاق ، مسألة تخص الشعب الإيرانى الذى يعرف ما يطاق ببلده وما لا يطاق ، ومسئول قبلنا على الأقل عن مواجهة ما لا يطاق هناك !

ولكن من يتولى عنا ما لم يعد يطاق من أحوالنا فى مصر ؟! هل نكلف كتابا إيرانيين وآخرين من بلاد تركب الأفيال للاهتمام بشئوننا والحديث عن لواعجنا ؟! أليس يقال من قديم : إن أهل مكة أدرى بشعابها ، فلماذا إذن لا نترك مكة أقصد إيران ! لأهل إيران ونتفرغ لمصائبنا التى استعصى علاجها وفهم دوافعها وأسبابها على أبناء الدار ؟!

لقد ضرب الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر ، ضرب المثل على أثر التخفف من المنصب وأعبائه وقيوده فى استرداد الحرية والقدرة على الرؤية الواضحة المصفّاة المبرأة من أثقال وحسابات الموقع .. وكان الظن

أن كتابنا الكبار الذين أحيلوا إلى المعاش بعد ربع قرن فى مواقعهم ، سيستردون حرياتهم وستصفو رؤيتهم ويستقيم توجههم وعباراتهم ، ولكنا عاينا العكس .. لماذا ؟! إن فى الصحافة غير الحكومية ما يتيح منافذ أخرى للتعبير والارتزاق غير» السدود» الحكومية المغلقة إلاّ على ما يراد .. نعم توجد أقلام كبيرة فى صحف قومية قد حيل بينها وبين الكتابة بصحفها لأن أقلامها جرت فى صحف أخرى بما لا يراد ، ولكن يقول الواقع المشاهد إنهم لم يخسروا شيئا بل كسبوا دخولا أكبر ، بينما خسرت صحفهم من حجبهم عن الكتابة فيها ! .. فلماذا الخوف والإحجام ؟! هل أمسى الخوف عادة صارت إلى» فوبيا» تمسك بتلابيب الكاتب أن يبقى ملتزما بما جرى واعتاد عليه بحكم الحسابات أو اتقاء تـوابع عـدم الرضاء ؟!!

القارئ والمتلقى بعامة ، قد صار فى أزمة حقيقية ، لا يستطيع أن يرى نافذة يطل منها وعليها محكومة بالموضوعية .. لقد صارت الموضوعية بضاعة بائرة فى هذا الزمان ، وباتت الشخصنة والرياء وتوابعه هى الأصل والأساس .. اجترأ حملة المباخر على الحديث حتى فيما لا يعرفون ولا يحسنون ، وتجرأوا وظهورهم مسنودة إلى حائط السلطة ونفوذها أن يرموا بالأقذار كل صاحب قامة حقيقية فى بـرمـصر ، وكأن البلاد قد ضاقت وضمرت حتى لم تعد تحتمل وجود قامات يرى حملة المباخر أن وجودها اقتطاع وخصم من الهياكل المطلوبة للأسياد !!

الذى لا يدركه القائمون على الأمور ، أن هذا الواقع المر سيقود إلى كارثة محققة ، لأن القلوب مطوية على امتعاض صار سخطاً يتنامى ويكبر وسوف يصير كالجبال ، يومها لن تنفع المواراة ولا الخديعة ولا المداورات ولا المسكنات .. إن السلطة أى سلطة مهما اشتدت ، هشة حين تفقد دعم وموافقة القاعدة العريضة إذا ما تقطعت بها أحبال الصبر !

*****